آليات الاتساق النصي في رسالة " الحاسد والمحسود" للجاحظ

جـــاهمي آمنـــة
جامعة 8 ماي 1945 - قالمة
chouabna.m@gmail.com

الملخّص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن وحدة النص الأدبي النثري، من خلال التعامل معه على أنه كل متكامل لا يقبل التجزئة، وقد وقع الاختيار على رسالة من رسائل الجاحظ الأدبية ألا وهي رسالة **"الحاسد والمحسود"**، محاولين بذلك الكشف عن نصية الرسالة بالاستناد إلى الأدوات المنهجية التي يتيحها علم اللغة النصي ممثلة أساسا في آلية الاتساق، ومن ثم الكيفية التي تم بها إبراز مجموع المفاهيم المتمثلة في ما يؤمن به الكاتب من مبادئ وما يستند إليه من قيم عبر اللغة، على أن ترتكز الدراسة على العناصر الآتية: الإحالة والوصل والحذف والتكرار والتوازي.

الكلمات المفتاحية: الاتساق ، النص ، النصية ، الإحالة ، الوصل ، الحذف ، التكرار، التوازي.

Les mécanismes de cohérence textuelle dans la lettre de El Jahid «L'envieux et l'envié»

Résumé :

La présente étude vise à révéler l'unité du texte littéraire en prose en la traitant comme un tout intégral. Nous avons opté pour l'une des lettres littéraires d'El Jahid: «L'envieux et l'Envié». Nous tenterons de dénouer sa textualité en s'appuyant sur les outils méthodologiques que propose la linguistique textuelle qui sont le mécanisme de cohérence et la méthode adoptée pour montrer les principes et valeurs sur lesquels l'écrivain se fonde à travers le langage. La présente étude porte sur: la référence, la conjonction, la délétion, la répétition et le parallélisme.

Mots clés : Cohésion, Texte, Textualité, Référence, Ellipses , Junction, Répétition, Parallèle .

Textual cohesion mechanisms in the letter of El Jahid « The Envious and The Envied »

Abstract:

The present study aims at revealing the unity of prose literary text through dealing with it as an integrated whole. We opted for one of El Jahid's literary letters : « The Envious

and The Envied » . We will attempt to unvail its textuality relying on the methodological tools that are offered by textual linguistics which are the mechanism of coherence and the method adopted to show the principles and values on which the writer relies through language. The present study focuses on : Reference, Conjunction, deletion, repetition and parallelism.

Key words: Consistency , Text , Scripts , Assignment Joining , Elimination , Repetition , Parallel .

تمهيـــــد :

للاتساق النصي أهمية قصوى في إبراز النصية من عدمها، كونه مقوم من مقوماتها الأساسية، وهو من الكلمات المفاتيح التي ارتكزت عليها الدراسة اللسانية النصية وذلك نظرا لعلاقته المباشرة بالنص، فهـو يمثـل مجمـوع العلاقات النحوية والمعجمية التي تربط الجمل فيما بينها، أو تربط بين أجزاء مختلفة من الجملة الواحدة، وبمعنى أدق يعنى الاتساق بالوسائل التي تحقـق الترابط على مستوى ظاهر النص(البنية السطحية)؛ أي أنـه يترتـب عـن إجراءات تبدو بها العناصر السطحية على صورة وقائع يؤدي السابق منهـا إلى اللاحق، وينتظم بعضها مع بعض تبعا للمباني النحويـة المختلفـة فـي معانيها ووظائفها.

واستنادا لهذه الآلية حاولنا مقاربة رسالة "**الحاسد والمحسود**" للجـاحظ مقاربة لسانية نصية، باحثين بذلك في سبل اتساقها، والكشـف عـن النظـام اللغوي الذي حقق لها النصية والتميز، لأن أسلوب الجاحظ في هذه الرسـالة مختلف نوعا ما عن بعض كتاباته الأخرى، ذلـك أن مقصـدها الأساسـي أخلاقي إجتماعي أكثر منه مقصدا أدبيا، وبهذا فهي مناسبة للمقاربـة بهـذا المنهج الذي لا تهمه أدبية النص بقدر ما تهمه نصيته.

1- مفهوم الاتساق النصي: Consistency - "cohésion"

أ - لغة: ورد الاتساق في اللغة بمعنى الجمع والضم، ففي اللسان : "اتساق القمر: امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة،" وقال **الفراء:** "إلى ست عشرة فيهن امتلاؤه واتساقه"، وقال **أبو عبيدة:** "وما وسق أي وما جمع من الجبال والبحار والأشجار والأرض فاجتمعت له فقد وسقها"، والوسق ضم الشيء إلى الشيء، لأن السائق إذا ساق قطيعا من الإبل قبضها أي جمعها لئلا يتعذر عليه سوقها، لأنها إذا انتشرت عليه لن تتتابع[1].

ب- اصطلاحا: الاتساق في مفهومه العام يترتب على وسائل تبدو بها العناصر السطحية على صورة وقائع، يؤدي السابق منها إلى اللاحق، بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي، وبحيث يمكن استعادة هذا الترابط.[2] فهو إذن أحد الوسائل اللغوية التي تتحقق بها النصية، ويتضمن مجموعة من الأدوات التي تؤسس العلاقات المتبادلة بين التراكيب اللغوية، لأن النص ليس مجرد تتابع عشوائي للجمل وإنما هو متوالية مرتبة ومنظمة، والترابط اللفظي يهتم بالوسائل اللغوية المتحققة في ظاهر النص، والتي تصل بين العناصر المكونة له، ومن أجل وصف اتساق النص لابد على المحلل أن يسلك طريقة خطية متدرجا من بداية النص (الجملة الثانية منه غالبا) حتى نهايته، ويمكن تقسيم أدوات الاتساق النصي كما يلي:

1- الإحالة : Reference - Assignment

تعد الإحالة وسيلة من وسائل الربط النحوي، وقد تناولها العلماء بمصطلحات مختلفة، وتعريفات متباينة، **فدي بوجراند**(R.De Beaugrand)يرى بأنها "العلاقة الرابطة بين العبارات وما تشير إليه من

مواقف في العالم الخارجي"[3]، وينقل "**براون و يول**"(Brown.Yule) عن "**لاينز** " (J.Lynons) مفهومه لها بأنها: "العلاقات بين الأسماء والمسميات بحيث يلقى على عاتق المتكلم إسناد وظيفة الإحالة بعبارات مناسبة فتحيل".[4] وقد نقل **سعيد حسن بحيري** مفهومها (الإحالة)عن "**كلماير**"(Kallemeyer) الذي يرى بأنها "العلاقة بين عنصر لغوي، وضمائر يطلق عليها صيغ الإحالة"[5]، فالإحالة إذن ليست شيئا مقصودا في ذاته، ولا الكلمات المحلية تحيل في ذاتها، وإنما المتكلم هو الذي يستعملها استعمالا إحاليا.

فالإحالة هي علاقة معنوية بين ألفاظ معينة وما تشير إليه من أشياء أو معاني أو مواقف تدل عليها عبارات أخرى في السياق، أو يدل عليها المقام، وتلك الألفاظ المحيلة تعطي معناها عن طريق قصد المتكلم، مثل الضمير واسم الإشارة، والاسم الموصول ...الخ، حيث تشير هذه الألفاظ إلى أشياء سابقة أو لاحقة، قصدت عن طريق ألفاظ أخرى أو عبارات أو مواقف لغوية أو غير لغوية. كما أنها تخبر عن العلاقة القائمة بين الدوال والمدلولات، وتعني العملية التي بمقتضاها تحيل اللفظة المستعملة إلى لفظة متقدمة عليها، والعناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل فمن صورها المتعددة استعمال الضمير ليعود على اسم سابق أو لاحق بدلا من تكرار الاسم نفسه ، ويؤدي ذلك إلى ضمان وحدة النص في ضوء ترابط جمله، فالإحالة نظر إليها من منظور الاقتصاد اللغوي، لأنها عناصر لغوية تعوض و تختصر تعبيرات سابقة مطولة فتعين المتكلم على اقتصاد[6] هذه العبارات أو المفاهيم في عناصر لغوية مختصرة، وتساعد مستعمل اللغة على إثارة محتوى تلك العبارات والاحتفاظ بها مهيأة في مراكز التخزين النشط دون الحاجة إلى ذكر كامل التفاصيل[7].

وتعرف الإحالة أيضا بأنها: علاقة دلالية تخضع لقيد دلالي، وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال عليه، ذلك أن عنصرا معينا في النص يعتمد على عنصر آخر لإبراز المعنى أكثر فأكثر والعناصر المحيلة مهما كان نوعها تقتضي العودة إلى ما تحيل عليه بغية فهمه وتفسيره. (8)

ويعرفها **محمد الشاوش** بأنها "العملية التي بمقتضاها تحيل اللفظة المستعملة على الشيء الموجود في العالم أي ما كان يسميه القدامى الخارج، وتعني أيضا إحالة اللفظة على لفظة متقدمة عليها".(9)

وقد قسمت الإحالة باعتبار موقعها من المحال عليه في النص إلى **قبلية** و**بعدية** ، وهي التي تسهم مباشرة في اتساق النص باعتبارها تحيل داخله سواء بالرجوع إلى ما قبل المحيل أو إلى ما بعده، كما قسمت باعتبار وجود المحال عليه في النص أو خارجه إلى إحالة **مقامية**، وهي إحالة إلى خارج النص، وإحالة **نصية** وهي إحالة إلى داخل النص، ويمكننا توضيح أقسامها من خلال المخطط الآتي:(10)

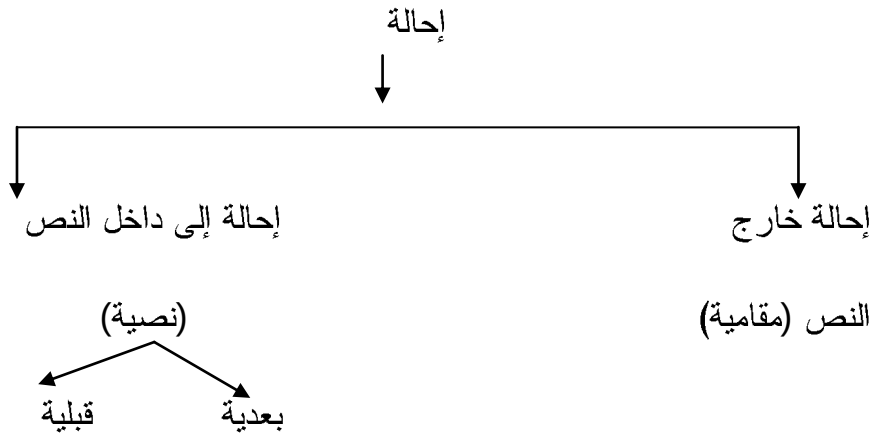

والإحالة كما سبق الذكر تفيد الربط بين أجزاء النص، ولتجسيد ذلك لابد من توفر عناصر إحالية تتمثل في المبهمات التي تكتسب معناها بالعودة إلى ما تحيل عليه، وتتمثل هذه العناصر فيما يلي:

1 – الضمائر:

يشير **تمام حسان** إلى أن مصطلح الضمير يعني كل ما دل على حضور أو غياب بما في ذلك الأسماء الموصولة وأسماء الإشارة.[11]

ونقل **محمد الشاوش** تصنيف **هاليداي ورقية حسن** للضمائر بحسب دورهما في عملية التخاطب إلى:

●ضمائر لها دور في عملية التخاطب، وهي خاصة بالمتكلم والمخاطب،وبالتالي فهي ذات إحالة مقامية

لا دور لها في تحقيق تماسك النص، وقد تكون ــ عرضا ــ ذات إحالة مقالية تساهم بشكل كبير في تحقيق الترابط والتماسك.

- ضمائر الغائب لا دور لها في عملية التخاطب، وهي عناصر ذات إحالة مقالية تساهم في تحقيق الترابط، وقد تكون ذات إحالة مقامية ، وبالتالي يبطل دورها في تحقيق الاتساق النصي. [12]

2 – أسماء الإشارة:

هي أسماء مبهمات تشير إلى مسميات تعين مدلولها تعيينا غالبا ما يكون حسيا[13] ، وتقوم أسماء الإشارة بالربط القبلي والبعدي، لأنها تكون معوضة لما يسبقها أو ممتدة فيما يلحقها، وهي في كلتا الحالتين رابطة بين أجزاء الكلام الواقعة فيه، إذ تساعد المتكلم على اختصار كلامه وتؤمن استمراريته دون تكرار ممل لبعض الكلمات والألفاظ التي تنوب عن بعض

الجمل والمقاطع والمفاهيم السابقة وبذلك تتجلى للقارئ فاعليتها القصوى في اتساق النصوص.

وتنقسم أسماء الإشارة إلى قسمين رئيسين هما:

القسم الأول: باعتبار المشار إليه من حيث الإفراد والتثنية والجمع، مع مراعاة التذكير والتأنيث، فجعلت **(أنا)** للمذكر المفرد، و**(ذان)** لمثناه، و**(ذي)** للمفرد المؤنث، و**(تان)(تين)** لمثناها.

القسم الثاني: باعتبار قرب أو بعد أو توسط المشار إليه، فنقـول**(ذا)** للقريب و**(ذاك)** للمتوسط و**(ذلك)** للبعيد،كما أن أسماء الإشارة تلحق بها **هـاء التنبيه** و**كاف الخطاب** فنقول : هذا وهذان ، ذلكم وذاك ...إلخ. (14)

3 – الأسماء الموصولة :

هي حلقة وصل بين جملتين اثنتين، وتعد من أهـم وسـائل اتسـاق النصوص،لأنها تحيل على أكثر من مفردة ،وتعوض وحدات معجمية سـابقة لها فتمنع تكرارها بلفظها وتحافظ على استمرارها في النصوص مشكلة بذلك تماسك أجزاء النص السابقة باللاحقة، وذلك كأن يذكر شخص في أول الكلام ثم يعاد ذكره موصولا فيقال ذلك **الذي** فعل كذا وكذا .

وعرفها **ابن يعيش** بأنها ضرب من المبهمات أي أن معناها لا يتم بنفسه بـل يحتاج إلى صلة بعده ليتم اسما فإذا تم بما بعده كان حكمه حكم سائر الأسماء التامة. (15)

دور الإحالة في تحقيق الاتساق النصي:

أ – الضمائر:

أول ما يلاحظ على مطلع هذه الرسالة هو جملة التساؤلات التي يطرحها الجاحظ في بداية كلامه عن **الحسد** حيث يقول :" تسألني عن الحسد ما هو؟ ومن أين هو؟ وما دليله و أفعاله؟ وكيف تعرف أموره و أحواله؟ وبما يعرف ظاهره و مكتومه؟ وكيف يعلم مجهوله ومعلومه؟ ولم صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء؟ ولم كثر في الأقرباء وقل في البعداء؟ وكيف دب في الصالحين أكثر منه في الفاسقين؟ وكيف خص به الجيران من بين جميع أهل الأوطان؟"(16).

فالمتأمل لهذه الفقرة يلمس ذلك الترابط بين أجزائها من خلال الضمائر التي أحالت على مرجع واحد يدور حوله الموضوع فلا تحيد عنه. ولا تحيل على غيره وهو "**الحسد**" الذي ورد صراحة في أول الفقرة، فجعلته الضمائر– بنوعيها المتصلة بالأسماء أو المستترة في الأفعال –بذلك حاضرا على امتداد هذه المساحة من الكلام من دون أن يعاد بلفظه مما أحدث اتساقا متينا في بنيان هذه الفقرة فصارت بذلك نسيجا مترابطا متراصا.

ومنه قوله أيضا عن **الحاسد:** "ولو لم يدخل على الحاسد بعد تراكم العموم على قلبه واستمكان الحزن في جوفه وكثرة مضضه ووسواس ضميره وتنغص عمره وكدر نفسه ونكد عيشه إلا استصغاره نعمة الله عليه وسخطه على سيده بما أفاد غيره وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه وأن لا يرزق أحدا سواه."(17)

ففي هذه الفقرة سبعة عشر (17) ضميرا يحيل على الحاسد المذكور في أولها والذي عليه تقوم معانيها لأن المقطع كله متعلق به (الحاسد) لذلك جاءت جل الضمائر محيلة عليه.

وللجاحظ أيضا كلام عن **المحسود** نلمسه في قوله: "وان كان المحسود ذا دين قال: متصنع يغزو ليوصى إليه ويحج ليشفى عليه و يصوم لتقبل شهادته و يظهر النسك ليودع المال بيته ويقرأ في المسجد ليزوجه جاره ابنته ويحضر الجنائز لتعرف شهرته" [18].

فالضمائر المشار إليها في الفقرة أحالت على المحسود الذي ذكر في البداية صراحة ثم عبر عنه فقط بالضمائر بنوعيها المتصلة والمنفصلة.

فظاهرة الحسد التي صورها لنا الجاحظ ظاهرة متفشية في المجتمع الإنساني منذ أمد بعيد وليست وليدة عصره فقط، وباعتبار الحاسد والمحسود طرفان أساسيان فيها فإن الجاحظ حاول تجسيد كل منهما من خلال الضمائر بنوعيها في كامل الرسالة، حتى أننا لا نجد فقرة واحدة تخلو من ذلك، وهذا ما يدل دلالة قاطعة على أن الترابط والتماسك موجود بأي وجه من الوجوه. وقد جسدت الإحالة ذلك كونها حققت النصية بين البنى المضمونية الصغرى للنص.

ب – أسماء الإشارة:

تعد أسماء الإشارة ملمحا مهما من ملامح اتساق الرسالة، وذلك نظرا لحضورها المكثف من جانب وتنوع إحالاتها من جانب آخر، ومن أمثلة ذلك في الرسالة قول الجاحظ: "ولكني أخاف عليك أن قلبك لصديقك غير مستقيم، وأن ضمير قلبك له غير سليم، وإن رفعت الأذى عن لحيته، وسويت عليه

ثوبه فوق مركبه، وقبلت صبيه بحضرته، ولبست له ثوب الاستكانة عند رؤيته، واغتفرت له الزلة، واستحسنت كل ما يقبح من جهته، وصدقته على كذبه، وأعنته على فجرته، فما **هذا** العناء، كأنك لم تقرأ المعوذة."[19]

فاسم الإشارة "**هذا**" عوض المقطع الممتد من "**ولكن أخاف عليك**" إلى غاية "**وأعنته على فجرته**"، وبذلك فإنه حقق إحالة مكثفة أسهمت في اتساق الكلام وترابط بعضه ببعض، لأن اسم الإشارة "**هذا**" يحيل على كيفية معاملة الحاسد للمحسود في غفلة منه ودون توخي الذدر منه.

وقال أبضا:" إنه لا يأتيك ولكن يناديك، ولا يحاكيك ولكن يوازيك، أحسن ما تكون عنده حالا، أقل ما تكون مالا، وأكثر ما تكون عيالا، وأعظم ما تكون ضلالا، وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهدا، وأبعد ماتكون من الناس حمدا. فإذا كان الأمر على هذا فمجاورة الموتى .... أهون من معاشرته."[20]

فلفظ "هذا" يحيل على مدى سخط الحاسد وتنغص قلبه وكثرة مضضه على من أنعم الله عليهم بالخيرات. وهذا المعنى مستفاد من الجمل التي سبقت اسم الإشارة والتي تشير كلها على فساد قلب الحاسد.

2 – **الحـــــذف:**Ellipses - Elimination

الحذف ظاهرة نصية كغيرها من الظواهر، لها دور فعال في اتساق النص وترابط عناصره، ويعرف **لغة:** بأنه: "حذف الشيء يحذفه حذفا، قطعه من طرفه»[21].

والحذف **اصطلاحا** هو عدول المتكلم عن ذكر عنصر أو أكثر من الكلام اختصارا، يعرفه

دي بوجراند(R.De Beaugrand) بقوله: "استبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن"[22]، فالحذف بصفة عامة مستند تفسيره إلى النص معجميا و نحويا، أي لابد من دليل لفظي على المحذوف سواء أكان سابقا على المحذوف ـــــــــــ وهو الأكثر ـــــــــ أو متأخرا عنه وهو أسلوب يرد في اللغة العربية بكثرة، وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم الحذف إلى:

حذف الحروف ذات المعاني: كحروف العطف، وحروف التشبيه.

حذف الاسم: ويكون مسندا إليه، أو مسندا، أو فضلة.

حذف الفعل: و لا يكون إلا مسندا، وقد يتصل به ضمير رفع أو نصب.

حذف الجملة: كجملة القسم، وجملة الشرط و جوابه.

حذف الكلام برمته: كحذفه بعد"نعم" لمن أجاب على السؤال بالإثبات.

حذف عدة جمل: ومثال ذلك قوله تعالى: "فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى"**[البقرة/73]** فالتقدير كما يقول **ابن هشام** :فضربوه، فيحي، فقلنا...[23].

<u>دور الحذف في تحقيق الاتساق النصي:</u>

<u>أ – حذف الضمير:</u>

في الرسالة حذف الضمير في قوله عن **الحاسد:** "فهو الكَلْب الكَلِب، والنمر النمر، والسم القشِب، والفحل القطم، والسيل العرم، إن مَلك قتل وسبى، وإن مُلك عصى وبغى."[24]

فالضمير "**هو**" حاضر بغيابه في عبارات هذه الفقرة، والمعنى الناتج عن تقدير القارئ له هو الذي يحقق الترابط والتماسك، إذ أن الأصل في

الكلام أن يكون كالآتي: "**هو** الكلب الكلب، و**هو** النمر النمر، و**هو** السم القشب، و**هو** الفحل القطم، و**هو** السيل العرم ...".

ب – حذف الجملة:

أيضا: "ما خالط الحسد قلبا إلا لم يكنه ضبطه... فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده، ومن السلطان على رعيته، ومن الرجل على زوجته، ومن الآسر على أسيره"(25).

فإذا رُد الكلام إلى أصل موضعه صار: ما خالط الحسد قلبا إلا لم يكنه ضبطه... **فهو أغلب على صاحبه** من السيد على عبده، و**هو أغلب على صاحبه** من السلطان على رعيته، و**هو أغلب على صاحبه** من الرجل على زوجته، و**هو أغلب على صاحبه** من الآسر على أسيره، ومن ثمة يتبين للقارئ بأن المحذوف في هذا المقطع هو جملة "**هو أغلب على صاحبه**"التي ذكرت في مستهل الكلام ثم حذفت، إلا أنها تفهم وتستفاد من السياق، الشيء الذي أسهم في تحقيق الاتساق بين الجمل، لأن الحذف يتوجه نحو توليد الإيحاء وتوسيع الذاكرة الدلالية وذلك بخلقه إمكانيات تتفجر و تختلف باختلاف القارئين وما يحملونه من تجارب متباينة.

ج – حذف الاسم:

إن الاسم في اللغة العربية لا يكون إلا مسندا أو مسندا إليه أو فضلة، ويتم حذفه في الحالات الثلاثة لغرض معين، ومن أمثلة ذلك في المدونة قول الجاحظ: "والحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل، وضد الحق، وحرب البيان فقد ذم الله به أهل الكتاب. "(26)

فالرابط بين الجمل في هذا المثال هو المبتدأ(**الحسد**) الذي حضر في الجملة الأولى اسما ظاهرا ثم ورد بعد ذلك مضمرا في الجمل الباقيات، فدل عله المذكور السابق، ما أحدث ترابطا واتساقا بين الجمل. فإذا رد الكلام إلى أصله أصبح كما يلي: والحسد عقيد الكفر، والحسد حليف الباطل، والحسد ضد الحق، والحسد حرب البيان فقد ذم الله به أهل الكتاب

وقال في موضع آخر:" والغل نتيج الحسد وهو رضيعه، وغصن من أغصانه، وعون من أعوانه، وشعبة من شعبه، وفعل من أفعاله."[27]، فكلمة (الغل) الظاهرة في الجملة الأولى تربط بين الجمل الخمسة اللاحقة، وتجعلها تشترك في المسند إليه، مما يعمل على اتساقها بما تحيل عليه من إحالة قبلية، وبما ترجع إليه من مرجعية سابقة أيضا.

د – حذف الفعل:

إذا كان الاسم يكون مسندا أو مسندا إليه أو فضلة، فإن الفعل لا يكون إلا مسندا ولا يتم الكلام إلا به، غير أنه قد يحذف في بعض الحالات لوجود قرينة تدل عليه، ومن أمثلة ذلك في الرسالة قيد الدراسة قول الجاحظ:" ولو كنت تعرف الجليل من الرأي، والدقيق من المعنى، وكنت في مذاهبك فطنا نقابا ولم تك في عيب من ظهر لك عيبه مرتابا، لاستغنيت بالرمز عن الإشارة، وبالإشارة عن الكلام وبالسرعة عن الجهر، وبالخفض عن الرفع، وبالاختصار عن التطويل، وبالجمل عن التفصيل، وأرحتنا من طلب التحصيل"[28]، فتقدير المحذوف في هذا المقطع يكون على النحو الآتي:

... لاستغنيت بالرمز عن الإشارة، ولاستغنيت بالإشارة عن الكلام ولاستغنيت بالسرعة عن الجهر، ولاستغنيت بالخفض عن الرفع، ولاستغنيت

بالاختصار عن التطويل، ولاستغنيت بالجمل عن التفصيل، وأرحتنا من طلب التحصيل.

فالفعل (استغنيت) المحذوف جعل الجمل المكونة لجملة جواب الشرط متسقة اتساقا شديدا، وذلك بتكراره وحضوره الدائم في ذهن المتكلم من جهة، وإحالته إحالة قبلية من جهة ثانية.

وجاء في موضع آخر قوله:"أتطلب ويحك أثرا بعد عين، أو عطرا بعد عروس، أو تريد أن تجتني عنبا من شوك، أو أن تلتمس حليب لبن من حائل"[29]

أين حذف فعلان في هذا المقطع (تطلب ، تريد) لأن تقدير الكلام يكون كما يلي: أتطلب ويحك أثرا بعد عين، أو أتطلب عطرا بعد عروس، أو تريد أن تجتني عنبا من شوك، أو تريد أن تلتمس حليب لبن من حائل.

فاتسقت الجمل بحضور المحذوف في ذهن القارىء بما يحدثه من تكرار ينشط الذاكرة ويمكن من استرجاع ما سبق ذكره.

3 – الوصـــــــل: Junction - Joining

يعد الوصل أحد أهم الأدوات النحوية التي تساهم في اتساق النصوص وترابطها، فمن خلاله يتم وصل أجزاء النص بعضها ببعض، هذا بالإضافة إلى أنه يمثل النسبة الكبرى في الروابط النصية، وللإشارة فقط ثمة اختلاف لدي اللسانيين النصيين في تسمية المصطلح فقد ترجمه بعضهم **بالربط**[30]، وبعضهم الآخر **بالترابط**[31]. فالوصل عبارة عن وسائل لغوية تعمل على ربط الجمل ببعضها في مستواها الأفقي معبرة عن متتاليات من الجمل التي لا تشكل نصا إلا إذا كانت مترابطة ترابطا سطحيا وفق إحدى الطرق التي يرتبط بها سابق النصوص بلاحقها[32].

ويقسم الباحثون الوصل إلى أربعة أقسام هي:[33]

-**الوصـــــل الإضـــافـــي:** ويتم التعبير عنه بـــ : "الواو" و "أو" و"بالإضافة إلى ذلك" و "كذلك"، وتظهر وظيفته في الربط بين أجزاء النص من خلال إضافة معاني جديدة له، عن طريق التتابع باستعمال أدواته.

-**الوصـــــل السبـــــبي:** و يتم بعناصر مثل : "هكذا" و "بناء على ذلك" و"نتيجة لذلك" و هذا النوع من الوصل يساعد على إدارك العلاقات المنطقية كالشرط و الجواب.

-**الوصل العكسي:** أو الوصل **الاستدراكي،** و تعبر عنه أدوات مثل: "لكن"،"إلا أن" ،"مع ذلك"، "على الرغم من هذا".

الوصـــــل الزمـــني: و هو الذي يربط بين جملتين متتابعتين و تشتركان في موضوع واحد، ومن أدواته: "بعد ذلك"، "الفاء"، "ثم".

<u>دور الوصل في تحقيق الاتساق النصي:</u>

<u>أ – الوصل الإضافي:</u>

اعتمد الجاحظ على " **الواو**" التي تحقق الربط الإضافي حيث تعمل على إضافة معان جديدة مما يؤدي إلى تنويع الدلالة، إضافة إلى أنها تفيد الجمع المطلق الذي لا يعنيه ترتيب في الذكر ولا ترتيب في الزمن بين الجمل، وإنما الغرض منه مجرد الجمع لا غير، و قد تم الوصل بهذه الأداة بين أغلب عناصر الجملة و بين الجمل المتتالية المكونة لنص الرسالة، ومن ذلك قوله: "والحسد – أبقاك الله– داء ينهك الجسد، ويفسد الود، علاجه عسر، وصاحبه صخر، وهو باب غامض وأمر متعذر، وما ظهر منه فلا يداوي، وما بطن منه فمداويه في عناء، ولذلك قال النبي صلى الله عليه و سلم: "دَب إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ: الحَسَدُ والبَغْضَاءُ."[34]. فالجاحظ في هذه الفقرة

يتحدث عن الحسد وآثاره الوخيمة على الإنسان، من دون أي قصد للترتيب أو التقديم أو التأخير، فمدار الأمر حصول ذلك كله في ذهن القارئ مجتمعا لينطلق منه إلى الموضوع.

ب – الوصل السببي:

كما اعتمد الجاحظ أيضا على **الفاء السببية** في الربط بين بعض الجمل ومن ذلك قوله: "فإذا أحسست من صديقك بالحسد فاقلل ما استطعت من مخالطته فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته وحصن سرك منه تسلم من شره، وعوائق ضره، وإياك والرغبة في مشاورته، ولا يغرنك خدع ملقه، وبيان ذلقه فإن ذلك من حبائل نفاقه" [35]. فالجاحظ ينصح المرء بعدم مخالطة الصديق الحسود، وعدم الإفضاء إليه بالسر وعدم مشاورته في أي أمر، لأن ذلك كله سبب رئيس في زيادة العداوة والبغضاء، لأن الحاسد متى أظهر محبته للمحسود فإن ذلك من باب النفاق لا غير، وهو بذلك يؤكد على الفكرة القائلة: لا خير يرتجى من الحسود.

ج – الوصل الزمني:

وهو ما يتضح جليا عندما يكون الجاحظ في إطار مناقشة حجاجية، حيث يعرض الفرضيات الواحدة تلو الأخرى، مراعيا ترتيبا معينا، جاعلا القضايا مطروحة بشكل تسلسلي، ومن ذلك قوله: " **و**ذلك أن الجيران ـــــــ يرحمك الله ـــــــ طلائع عليك، **و**عيونهم نواظر إليك، **ف**ـمتى كنت بينهم معدما **ف**ـأيسرت، **ف**ـبذلت **و**أعطيت، **و**كسوت **و**أطعمت، **و**كانوا في مثل حالك **ف**ـاتضعوا، **و**سلبوا النعمة **و**ألبستها أنت، **ف**ـعظمت عليهم بلية الحسد **و**صاروا منه في تنغيص آخر الأبد"[36].

ومن ذلك قوله أيضا: " وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدهما أخاه، فعصى ربه وأثكل أباه، وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين"[37]، فالفاءات الواردة في هذا المقطع حاملة معنى الترتيب الزمني، والأفعال الواردة فيه لا يمكن أن تكون إلا بهذا الترتيب، وبهذه الفورية على النحو الآتي:

- عصى ربه.
- قتل أخاه.
- أصبح من الخاسرين.

4- التكـــــرار: Recurence - Repetition

يعرفه **روبرت دي بوجراند** (R.De Beaugrand) بأنه: « التكرار الفعلي للعبارات، ويمكن للعناصر المعادة أن تكون هي نفسها أو مختلفة الإحالة أو متراكمة الإحالة، و يختلف مدى المحتوى المفهومي الذي يمكن أن تنشطه هذه الإحالات بحسب هذا التنوع.»[38] ، فالتكرار هو إعادة العنصر المعجمي نفسه، أو إعادة عنصر آخر مشابه له في المعنى، أو ما يحيل عليه مما يؤدي إلى اختلاف المحتوى المفهومي، وللتكرار أربعة أنماط هي:

التكـــرار المحـــض: و يكون بتكرار اللفظ كما هو مع وحدة المرجع.

تكرار اللفظ: ويكون بتكرار اللفظ دون المعنى.

تكرار المعنى: ويكون بتكرار المعنى مع اختلاف اللفظ.

التكرار الناقص: و يتم فيه استعمال الجذر اللغوي بصيغ مختلفة.

دور التكرار في الاتساق النصي:

ورد التكرار بنوعيه(تكرار المعنى، والتكرار الجزئي) في رسالة "**الحاسد والمحسود**"، وذلك من خلال قوله:" ... منه تتولد العداوة وهو سبب

كل قطيعة ومنتج كل وحشة، ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رحم بين الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء، وملقح الشر بين الخلطاء، يكمن في الصدر كمون النار في الحجر." (39).

حيث نجد: ـــــــــــــ تكرار **المعنى** من خلال: ـــــــــــــ

مفرق ـــــــــــ قاطع/ قطيعة، وحشة .

ـــــــــــــ التكرار **الجزئي** من خلال: ـــــــــــــ

يكمن ـــــــــــ كمون.

ـــــــــــــ التفرق، مفرق.

كما نجد **تكرار المعنى** في قوله: "إما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدهما أخاه، فعصى ربه واتكل أباه وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين" (40). وذلك في إشارة منه إلى قتل **قابيل** لأخيه **هابيل** بسبب الحسد والبغضاء، من خلال الكلمات الآتية:

قتل أحدهما = قتل أخيه = فقتله.

أخاه = أخيه.

فتكرار هذه الكلمات بالذات جاء بغية تأكيد المعنى وتقويته وتوجيه المتلقي إليه لإثارة انتباهه حول أول معصية ارتكبت على وجه الأرض، فكان التكرار بذلك ملمحا من ملامح نصية المقطع و أدبيته.

وقال في موضع آخر: "ولو سلم المخذول قلبه من الحسد لكان من الإسلام بمكان، ومن السؤدد في ارتفاع، فوضعه الله لحسده، وأظهر نفاقه، ولذلك قال القائل:

طال على الحاسد أحزانه فاصفر من كثرة أحزانه

دعه فقد اشعلت في جوفه ما هاج من حر نيرانـــــه

العيب أشهى عنده لـــــذة من لذة المال لخزانـــــــه
فارم على غاربه حبلـــــه تسلم من كثرة بهتانـــــه"[41]

ففي هذا المقطع تكررت أربع كلمات (الحسد، الأحزان، اللذة، الكثرة) تكرارا محضا بمعدل واحد لكل منها، فكان لهذا التكرار دورا مهما في تحديد الموضوع والمتعلق أساسا بالحاسد ونفسه المريضة الحاقدة التي تضمر الشر وتتظاهر بالخير، وتنطوي على الغل والحقد.

5- التوازي: Parallèle - Parallel

يعتبر التوازي واحدا من أهم الوسائل التي تسهم في اتساق النص وتماسكه، من خلال ما يحدثه من تكرار لنظم الجمل، فهو إعادة تكرار الوزن والجرس الصوتي دون إعادة اللفظ ذاته، مشكلا بذلك نغمة موسيقية معينة بين الجمل المكونة للنص.

وظاهرة التوازي موجودة بكثرة في الشعر، لأنه يقوم أساسا على المقاطع وتماثل أوزانها والمقصود بالجمل المتوازية هي الجمل التي يقوم الشاعر بتقطيعها تقطيعا متساويا، بحيث تتفق في البناء النحوي اتفاقا تاما، بغض النظر عن اتفاقها في المستوى الدلالي. [42]، وشرط الجمل المتوازية أن تكون متتالية في البناء النصي لا فاصل بينها، وإلا خرجت عن دائرة هذه الظاهرة.

وللتوازي حضور ملحوظ في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب القدماء شعره ونثره، فمن ذلك قوله عزوجل:﴿وآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ المُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِرَاطَ المُسْتَقِيمَ ﴾ الصافات: (117-118).

فظاهرة التوازي مجسدة في الكلام العربي شعره ونثره، بغض النظر عن بروزها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وقد اعتنى بها العرب القدماء بلاغيين ونقادا عناية فائقة، إلا أنهم اختلفوا في مصطلحاتهم الدالة عليها.

وأكثر المصطلحات التي وردت لديهم والمتفقة مع ما نقصده بالجمل المتوازية في هذا البحث هو مصطلح "**اتساق البناء**" الذي أورده **قدامة بن جعفر (ت 337ه)**، ومثل له بقول الرسول صلى الله عليه وسلم لجرير بن عبد الله :" خير الماء الشبم، وخير المال الغنم، وخير المرعى الأراك والسلم، إذا سقط كان لجينا، وإذا لبس كان درينا، وإذا أكل كان لينا." (43)

وأورد **أبو هلال العسكري (ت 395ه)** مصطلح "**التشطير**" للدلالة على ظاهرة التوازي، وقد عرفه قائلا:" أن يتوازى المصرعان أو الجزءان، وتتعادل أقسامهما، مع قيام كل واحد منهما بنفسه، واستغنائـــــه عن صاحبه."(44)

كما أطلق **القزويني** (ت 739ه) على هذه الظاهرة مصطلح "**الموازنة**" وعرفها بقوله:" أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون القافية." (45).

فظاهرة التوازي موجودة في الأنماط التعبيرية العربية الشعرية والنثرية على حد سواء، والعرب القدماء بلاغيين ونقادا كانوا على وعي تام بأن التوازي لم يكن مقتصرا فقط على النمط التعبيري المألوف، وإنما تعداه إلى الأنماط التعبيرية الأخرى التي اصطلح على تسميتها بالأنماط الانحرافية أو الانحيازية.

دور التوازي في تحقيق الاتساق النصي:

أ – التوازي التام:

عادة ما تكون ظاهرة التوازي موجودة في الشعر أكثر منه في النثر، إلا أن ذلك لم يمنع وجودها في الرسالة ومن أمثلة ورودها قوله: " والحسد – رحمك الله– أول خطيئة ظهرت في السموات، وأول معصية حدثت في الأرض خص به أفضل الملائكة فعصى ربه، وقايسه في خلقه، واستكبر عليه"(46).

أول خطيئة ظهرت في السماوات= أول معصية حدثت في الأرض

فكان توازي الجملتين وفق البنية التركيبية الآتية:

مبتدأ + مضاف إليه + (فعل + فاعل + حرف جر + اسم مجرور)= خبر

عاملا من عوامل اتساق هذه الفقرة.

وقال أيضا: " ولو كنت تعرف الجليل من الرأي، والدقيق من المعنى، وكنت في مذاهبك فطنا نقابا ولم تك في عيب من ظهر لك عيبه مرتابا، لاستغنيت بالرمز عن الإشارة، وبالإشارة عن الكلام وبالسرعة عن الجهر، وبالخفض عن الرفع، وبالاختصار عن التطويل، وبالجمل عن التفصيل، وأرحتنا من طلب التحصيل" (47). وقد تجلى التوازي التام في هذه الفقرة من خلال مايلي:

مفعول به + حرف جر + اسم مجرور = ـــــــــــ الجليل من الرأي.

ـــــــــــ الدقيق من المعنى.

حرف جر + اسم مجرور + حرف جر + اسم مجرور =

ـــــــــــ بالرمز عن الإشارة.

ـــــــــــ بالإشارة عن الكلام.

ـــــــــــ بالسرعة عن الجهر.

ـــــــــ بالخفض عن الرفع.

ـــــــــ بالاختصار عن التطويل

ـــــــ بالجمل عن التفصيل.

فهذا التعادل البنيوي يقابله تجدد في العناصر المعجمية وتنوع في المحمولات الدلالية والقضايا المعنوية على المستوى الأفقي، لأن المعجم والدلالة من المرتكزات في الأذهان، وبذلك أدى التوازي دورا اتساقيا بناء على تزاوج البنيات المتعادلة وتضافرها.

وقد يؤدي التوازي وظيفة أخرى غير الربط، فهو يسهم في نمو النص[48] وتوليد معانيه، وذلك بتكرار نمط الوزن مع إضافة بعض العناصر عليه، فيزداد بها المعنى غنى وثراء، وهو ما يتجسد في التوازي غير التام.

ب – التوازي غير التام:

وهو قليل الورود في المدونة ومن أمثلته قول الجاحظ:" حياتك موته، وموتك سروره وعرسه." [49]

فإضافة كلمة **(سروره)** إلى التركيب في الجملة الثانية زاد المعنى قوة وجعله أكثر تحديداو تعبيرا وإيحاء، لأن الحاسد يفرح ويبتهج بل ويقيم الأفراح إذا أصاب المحسود هم وكرب.

ويمكن القول في الأخير بوجود نوع من التناغم العميق بين مستويات اللغة المختلفة إضافة إلى التداخل الكبير بين وسائل الاتساق إلى درجة لا يمكن الفصل فيها بين النحو والدلالة إطلاقا وبخاصة على مستوى الممارسة النصية. فالنص جاء مترابطا متماسكا من طريق الإحالات بأنواعها، والتكرار والوصل والحذف والتوازي فكانت اللغة بذلك وسيلة وغاية كفيلة بتحقيق النصية.

الهوامش:

(1) ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1997، مادة(و س ق)، 6/ 379.

(2) ينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب و الإجراء، ترجمة: تمام حسان دار الكتب، القاهرة، مصر، ط1 ، 1998، ص300.

(3) المرجع نفسه، ص 172.

(4) ينظر: براون و يول تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي، منير التريكي، السعودية، دط، 1997، ص36.

(5) ينظر: دراسات لغوية تطبيقية بين البنية والدلالة، مكتب الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2005، ص98.

(6) ينظر: عمر أبو خرمة، نحو النص، نقد النظرية وبناء أخرى، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2006، ص172.

(7) ينظر: إلهام أبو غزالة، وعلي خليل أحمد، مدخل إلى علم اللغة النصي، تطبيقات لنظرية دي بوجراند، ولفجانج دريسلر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط2، 2002، ص92.

(8) الأزهر الزناد، نسيج النص؛ بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط01، 1993، ص 118.

(9) ينظر: محمد الشاوش: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، جامعة منوبة، كلية الآداب، تونس، مج/02، 2001، ص 125.

(10) محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991،ص17.

(11) تمام حسان، في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، جامعة منوبة، كليـــة الآداب، تونس، مج/02، 2001، ص91.

(12) محمد الشاوش: أصول تحليل الخطاب، ص 126.

(13) ابن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، لبنان، دط، دت، ص126/3.

(14) ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 180، 181.

(15) ابن يعيش، شرح المفصل، ص 138/3، 139.

(16) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ الأدبية، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1979، الجزء 3، ص 03.

(17) المدونة: رسالة الحاسد والمحسود، ص 05.

(18) المرجع نفسه، ص 08

(19) م ن ، ص 19.

(20) م ن ، ص 20.

(21) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ح ذ ف)،ص 39/09.

(22) النص الخطاب والإجراء، ص 301.

(23) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2003، ص747/2.

(24) المدونة، ص 18.

(25) م ن، ص 12.

(26) م ن، ص 04.

(27) م ن، ص 21.

(28) المدونة، ص 18، 19.

(29) المدونة، ص 19.

(30) فولفجانج هينه من وفيهفيجر ديبتر، مدخل إلى علم اللغة النصي، تر: فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، 1999، ص 25

(31) ينظر: براون ويول ، تحليل الخطاب، ترجمة: محمد لطفي الزليطي، منير التريكي، جامعة الملك سعود، السعودية، 1997، ص 228.

(32) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص 301،302.

(33) محمد خطابي، لسانيات النص، ص23،24.

(34) المدونة، ص 3،4.

(35) م ن ، ص 16.

(36) م ن ، ص 11.
(37) م ن ، ص 06.
(38) النص والخطاب والإجراء، ص 301 ، 302.
(39) المدونة، ص 05.
(40) م ن ، ص 06.
(41) م ن ، ص 10.
(42) ينظر: رجب عبد الجواد، مقال الجمل المتوازية عند طه حسين، دراسة في أحلام شهرزاد، مجلة علوم اللغة، المجلد03، العدد04، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000،ص 231.
(43) جواهر الألفاظ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مصر، د ط، 1932ن، ص 03.
(44)الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم،مصر،1952،ص463، 464.
(45) الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق جماعة من علماء الأزهر الشريف، مصر، د ط، د ت، ص 522.
(46) المدونة، ص 06.
(47) المدونة، ص 18، 19.
(48) محمد خطابي، لسانيات النص، ص 230.
(49) المدونة، ص 18.